

سيكولوجية "ما يجب" و "ما أريد"

شرفاوي حاج عبو

أستاذ علم النفس بقسم اللغة جامعة بشار



من منظور العلاج النفسي الجشتماني يتصارع داخل الإنسان قوتان الأولى هي قوة "ما يجب أن يكون" أما الثانية فهي قوة "ما أريد". وكما اتسعت المسافة بين "ما يجب" و "ما أريد" كانت شدة الصراع بما يؤدي في النهاية إلى السلوك المضطرب الذي يشير عند تحليله إلى أي القوتين المتصارعتين لها الغلبة الظاهرية و تيف تعبر القوة المغلوبة عن نفسها ليخرج السلوك في مجمله غير متسق أو مشوه. وقد تنسم القوة "ما يجب" بالحكمة و الالتزام بالقوانين و الأعراف وقد تؤدي في حال تطرفها إلى حالة من الجمود و عدم المرونة و تجاهل للقوة "ما أريد". و قد تنسم أحيانا القوة "ما أريد" بالطولية و العقوبة و عدم النضج و قد تؤدي في حال تطرفها إلى سلوك لا يتسق و المرحلة التي يعيشها الشخص متجاهلة القوة "ما يجب". السواء إذن هو توافق القوتين فيما بينهما ليكون السلوك الإنساني معبرا عن "ما أريد" في حدود "ما يجب أن يكون". و يساعد على تحقيق هذا التوازن بين القوتين إدراك كل قوة لوجود الأخرى و الاعتراف بها ثم عمل التسوية بين مطالب كل قوة. قد يقوم بعمل هذه التسوية و فض النزاع بين القوتين طرف ثالث تكون مهمته وزن الأمور حتى لا ينفلت زمام أي من القوتين فتلغي إحداها الأخرى. هذه المهمة يقوم بها الإنسان عندما يعي بالمتناقضات الداخلية فيقوم بالتسوية بينهما. إذن الوعي أو فلنقل العقل هو الجهة القادرة على حل المتناقضات و الصراعات بين "ما يجب" و بين "ما أريد".



الحال لا يختلف كثيرا عند الحديث من خلال وجهة النظر نفسها عن سيكولوجية العلاقة بين الحاكم و المحكوم، إذ من المفترض أن يمثل الحاكم منطق "ما يجب أن يكون" و يمثل المحكوم منطق "ما أريد" بغض النظر عما يجب أن يكون. و بسبب تعارض هذان المنطقتان فإنه حتما سيصل الأمر بينهما إلى الصراع. الذي لا يكون حله إلا في وجود قطب ثالث يلعب دور العقل المفاوض الذي يسعى إلى إيجاد تسوية لهذا الصراع بما يرضي الطرفين، فيفعل المحكوم ما يريد في إطار ما يجب أن يكون أو العكس فيفعل الحاكم ما يجب أن يكون بحيث لا يقهر ما يريد المحكوم. مما يعني ضرورة تنازل قطبي الدولة الحاكم و المحكوم عن بعض من رغباتهم و حرياتهم في سبيل استقرار الدولة و توافق العلاقة بينهما. أتصور أن من يقوم بدور العقل و الوعي في الأمة هو الديمقراطية للوصول إلى التسوية المقبولة و المرضية لقطبي العلاقة الحاكم و المحكوم. و عندما يحدث أن تفقد الأمة عقلها فلا ديمقراطية هنا يحدث الصراع بين قطبي العلاقة أو يحدث الصراع بين "ما يجب أن يكون" من وجهة نظر الحاكم و بين "ما أريد" من وجهة نظر المحكوم، و قد يصل الصراع إلى حد الاضطراب فتصبح الدولة تيان مريض معتل؛ و تعاني كثير من الدول النامية من هذا الاضطراب. كما يفترض انه كلما نضج المحكوم أصبح " ما يريد " ليس بعيدا كل البعد عن " ما يجب أن يكون " و العكس صحيح كلما كان المحكوم طفليا كلما زادت المسافة بين " ما يريد " و " ما يجب ".

تمر الشعوب بمراحل تطور و نمو مثلها مثل الإنسان في تطوره من طفولة فراهقة فضج فشيخوخة. و إذا حاولنا تطبيق مفاهيم مدرسة التحليل التفاعلاتي لـ **إيرك بيرن** و التي تقول أن هناك ثلاثة حالات للإنسان في تفاعله مع الآخر و هي " الولد - الراشد - الطفل ". فيمكن القول تبعاً لذلك أنه إذا كان المحكوم طفلي كلما كان أكثر طاعة للحاكم كما هو الحال في البلاد المحررة حديثاً فنجدها ملتفة مطيعة عمياء للقائد ترى فيه النموذج و تتبعه تبعية الطفل للوالد و تعتد عليه اعتمادية الرضيع على أمه. و دائماً ما يمارس الحاكم في الوطن العربي دور الوالد فنجده علاقته مع المحكوم تأخذ علاقة الوالد/ بالطفل و قد يكون هذا الوالد حنوناً عطوفاً ؛ و قد يكون هذا الوالد عطوفاً إلى حد أن يصبح المحكوم كالطفل الذي أفسده التدليل. و قد يكون هذا الوالد عنيفاً يرفض المناقشة و التفكير و يجد في العقاب الوسيلة المثلى للتربية كلما نضج المحكوم ازدادت استقلاليتته؛ حتى إذا وصل للمراهقة فهنا يبدأ الصراع الحقيقي بين ما يجب أن يكون و في هذه الحالة يجب على الحاكم معاملته باعتباره شخصاً و ليس طفلاً و إعطائه مساحة أكبر من الحوار و حرية الرأي و حرية اتخاذ القرار و حرية الخطأ أيضاً. و محاولة الحاكم اعتبار المحكوم المراهق مجرد طفل لا يعرف " ما يريد " فهذا يعني بالضرورة قهر نموه ليصبح و كأنه جسد رجل كبير بعقل طفل، أو بالأحرى أمة كغناء السيل. و يعني هذا أن الحاكم إنما ينصب من نفسه وصياً شرعياً على هذا المعاق ذهنياً ليتصرف كيف يشاء و بما يراه واجباً أن يكون و دون اعتباراً لما يريد المحكوم. فعلى الحاكم أن يدرك أن المحكوم لم يعد طفلاً و انه دخل في مرحلة المراهقة و من ثم فمن حقه أن يكون له دوراً و رأياً و شخصية منفصلة لها ملامحها المميزة؛ و إذا لم يعي الحاكم ذلك فإنه سيدخل في صراع و صدام حتمي حيث يصير على ممارسة دور الوالد العنيف الذي يظن أن في الشدة الأسلوب الأمثل للتربية لهذا الطفل العاق الذي لا يحترم أبوه و لا يحله. و إذا كان المحكوم يتخطى المراهقة و يسعى للدخول في مرحلة أكثر نضجاً؛ بينما يصير الحاكم على أن يمارس فقط دور الوالد المتسلط فهذا يكون الطامة الكبرى، إذ سيري الحاكم أن المحكوم غير ناضجاً و لن يحسن استخدام الديمقراطية و الحياة النيابية. و بما أن المحكوم راشداً و عاقلاً و يعرف ما يريد فانه سيدخل في صراع لا ينتهي مع الحاكم، قد يصل إلى حد صراع إثبات شرعية الوجود. و كلما كان الحاكم مستتبداً متحصناً بـ " كان باطشاً بالمحكوم إما سجناً أو اعتقالاً له حتى يثنيه عن مواقفه المعارضة لسلطة الحاكم. و قد يحدث في قمة الشذوذ النفسي ألا يحكم الحاكم منطق " ما يجب " بل يحكمه منطق " ما يريد " و كأننا هنا أمام طرفيين كل منهما يحكمه منطق " ما يريد " أو فلنقل إننا أمام طفلين كل يتعلق باللعبة في مقابل الآخر و سينتهي حتماً الصراع بينهما إلى تمزق اللعبة؛ فلو كانت اللعبة هي الوطن فهل لنا أن نتصور كيف سيكون الأمر ؟ . و قد يحدث أيضاً في قمة الشذوذ النفسي أن نجد الحاكم الطفل الذي يبحث فقط عما يريد دون الالتفات إلى " ما يجب " بينما المحكوم هو الراشد العاقل الذي يسعى لحماية نفسه و الوطن من عبث الحاكم و تخريبه.

إن الحال الأمثل للعلاقة بين الحاكم و المحكوم تتمثل في أن الحاكم عليه أن يعامل المحكوم باعتباره أن حقه الصراع و من حقه " أن يريد " مما يعني ضرورة ممارسة الديمقراطية الكفيلة بفض هذا الصراع حتى يكمل المحكوم مراحل نموه بسلام فيمر بمرحلة المراهقة و صولاً إلى مرحلة الرشد و النضج الفكري لتصبح العلاقة بين الحاكم و المحكوم علاقة راشد/ براسد و ليس علاقة والد/ بطفل؛ و بذلك تقل المسافة بين " ما يجب " و " ما يريد " إلى أقل ما يمكن؛ فتكون قرارات الحاكم و المحكوم متفقة تماماً إزاء القضايا و الأهداف الموضوعة للدولة.

في النهاية أتصور أن الطامة الكبرى تقع عندما لا يدرك الحاكم مرحلة النمو الفكري التي يمر بها المحكوم؛ فيصر على أن يراه في ثوب الطفل و ليس على ما هو فيه من مرحلة نمو الفكري؛ رافضاً فهم الإشارات الداعية للتغيير التي يرسلها المحكوم، أو أن يرفض الاستجابة لهذه الإشارات بالديمقراطية إلى التوافق بين " ما يجب " و " ما يريد ". أن الأدهى والأمر يقع عندما لا يدرك الحاكم انه إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر.

بعيدا عن الحاكم و المحكوم أدعو كل قارئ لهذا المقال أن يقدر المسافة بين " ما يجب " و " ما يريد " أن يكون، على المستوى الفردي والاجتماعي ثم يقرب المسافة بينهما حتى يحقق التوازن ويتخلص من الصراعات والاضطرابات.